

المحاضرة الخامسة

الحدث الشعري (ب)

العناصر الفنية للنص الشعري الحداثي:

لا يمكن تصور التجديد الذي أدخلته الحداثة على الشعر المعاصر أنه قد اقتصر على التحرر من قالب الفني القديم الموروث عن الشعر العمودي، لأن مساحة التحرر التي استفاد منها الشاعر لم تخل من تبعات نقدية تتوجه إلى التساؤل عن ماهية العناصر الفنية التي أصبحت تميز الشعر الحداثي في ظل تخليه عن تلك الفنيات العروضية الموروثة.

ويبدو أن هذا الوضع قد هيا للحدث الشعري ظهور حركة نقدية موازية ومؤازرة للشعراء، تدافع عنهم وتبين لهم ما يجب أن يكون عليه الإبداع الشعري الحداثي، وربما كان الشاعر الحداثي هو نفسه الناقد والمنظر كما في حالة (أدونيس)¹، أما العناصر الفنية التي تميز النص الشعري الحداثي فهي:

أولاً: الموسيقى:

على الرغم من أن ثورة الشعر الحر كما ترى نازك الملائكة إنما جاءت في أصلها ثورة على تحكيم الشكل في الشعر، لكن ذلك لم يُعَفِّ الأنموذج الجديد من الاحتكام إلى (إيقاع) بديل، تجسّد مع الرواد الأوائل في (التفعيلة) كأساس موسيقي، ثم لم يلبث أن تخطى عن التفعيلة أيضاً ليتبنى فكرة الاعتماد على موسيقى النبر، ويُعد محمد النويهي² من أشهر المدافعين عن هذا النوع من الموسيقى، لكن النبر لا يثبت أيضاً بسبب التوظيف اللغوي المختلف بين الأقطار

¹ له أكثر من 60 مؤلفاً، من دواوينه الشعرية: قصائد أولى - زمن الشعر - أغاني مهيار الدمشقي - أوراق في الريح - وقت بين الرماد والورد، ومن كتبه النقدية: مقدمة للشعر العربي - زمن الشعر - الثابت والمتحول: ج1 الأصول ج2 تأصيل الأصول ج3 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني.
² ينظر محمد النويهي: قضية الشعر الجديد، دار الفكر، 1971، ط2، ص: 98.

العربية، ثم تخلوا عن نظرية النبر، وتبنوا التحرر الشكلي التام، على أن تتوفر في الشعر الحدائي موسيقى داخلية تتصل بالصور والأفكار والمعاني ومختلف العلاقات الرابطة بينها كالتوازي والتضاد والتتابع.

ثانيا: الأسطورة والرمز:

تنبغي الإشارة أولا إلى أن الشعر الصوفي قد استخدم الرمز قبل الشعر الحدائي، أو بعبارة أخرى فإن الشعر الصوفي القديم يأخذ صفة الحدائنة في سبقه لاستخدام رموز الخمر والمكان والمرأة والعدد، للتعبير عن حالات الوجد والفناء والغيبة عن الحس، أما عن الأسطورة فقد ظهرت أولا مع قصيدة أنشودة المطر للسياب في أواسط الخمسينيات من القرن العشرين¹، وتوظيف الأساطير يساعد الشاعر المعاصر على التجريد، ومنح الأفكار بعدا إنسانيا، كما يمكنه من تعطيل الحاجز الزمني بين اللحظة الراهنة والأزمنة الغابرة، وهو الأمر الذي أغرى الشعراء إلى أسطورة² الأفكار والصور، ومن أشهر الأساطير المستخدمة: (تموز) الدالة على الحياة المستحدثة بعد الموت والخراب، ومن رموزها الثور، و(عشتار) الدالة على الحب والحرب، ومن رموزها النجمة الثمانية ويشار إليها أيضا بكوكب الزهرة، وتموز هو زوج عشتار، وقد كان لاستخدام الأسطورة أثر بليغ في تخلص الشعر الحدائي من الأفكار المباشرة ومن سطحية الطرح، وكان له أثر في تعميق أفكاره وتوجيهها نحو المسائل الكلية.

ثالثا: الصورة:

لقد كانت الصورة عنصرا أساسيا في الشعر منذ نشأته، لكن المعيب في توظيف تلك الصور القديمة هو أنها استنفدت طاقتها الإيحائية، فلم يعد (البحر) بذلك العمق المعنوي

¹ ينظر: نعيم اليافي: الصورة في القصيدة العربية المعاصرة، مجلة الموقف الأدبي، العدد: 255-256، دمشق، 1992، ص: 46.
² الأسطورة: إضفاء الطابع الأسطوري على الأفكار والأحداث.

الموحي بالكرم، أو بعبارة أخرى كان للبحر قيمة إيحائية دالة على المبالغة في الكرم، لكنه بفعل كثرة الاستعمال اقتربت دلالتة (كمشبه به) من الكرم (كمشبه) حتى أصبح المتلقي يتوقعه، ولا يحدث في ذهنه أية إضافة، لأن أساس الصورة الفنية المعاصرة إنما هو في الابتكار والخلق، انظر مثلاً إلى قول الشاعر محمود درويش في قصيدة (حالة حصار):

هنا، عند مُنَحَدَرَاتِ التلالِ

أمام الغروبِ وفُوهةِ الوقتِ

قُرْبَ بساتينِ مقطوعةِ الظلِّ

بم توحى إليك نسبة الفوهة إلى الوقت؟ إنها الدلالة القوية على صفة القتل في الوقت، وما الذي يمكن فهمه من البساتين مقطوعة الظل؟ إنه إحياء قوي بما يفعله المستوطن الصهيوني من قطع لأشجار البساتين الفلسطينية وما ينجرّ عن ذلك من آثار على الإنسان...، ثم إن اطلاع الشعراء العرب المعاصرين على الشعر الغربي أحدث بعض التقليلات في الأفكار التي توحى بها الصورة، حيث نجد الشاعر محمود درويش في قصيدة (جواز السفر) يقول: (لا تتركيني شاحبا كالقمر) مما يدل على أن القمر ههنا يوحى بالخوف الرعب، على عكس إيحائه في الصورة النمطية العربية القديمة بالجمال والضياء.

رابعا: الرؤيا:

ويقوم هذا العنصر أولا على ضرورة التمييز بين (الرؤية) و(الرؤيا)، فالشعر التقليدي كان مأخوذا بالرؤية الصورية الحسية الشكلية التي غالبا ما يكون هدفها البيان والتوضيح، أما الرؤيا الحداثية فلا تهتم إلا بالجواهر ونقل التجربة والإحساس بالعجز والغموض والتأزم تجاه الواقع العربي الراهن، ويؤكد أدونيس على أن الشعر الحداثي "رؤيا، والرؤيا بطبيعتها قفزة

خارج المفهومات السائدة، هي إذن تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النظر إليها"¹، وهذا هو فضل التميز بين الشاعر الحدائي وغيره، فلم يعد جمال التعبير عن الفكرة هو الفرق، بل هو الفكرة (الرؤيا)، غير أن النقاد المعاصرين اختلفوا في طبيعة هذه الرؤيا، بين أن تكون مأساوية أو ثورية أو ميتافيزيقية.

ويمكن أن نختم هذا العرض عن الحداثة الشعرية بما يراه أدونيس من شروط للشعر الحدائي وهي:

- 1- أن يتخلى عن الحداثة لأن ثمة تنافرا بين الحداثة والشعر.
 - 2- أن يتخلى عن الواقعية التي تُحيل على التعامل النثري العادي، واستخدام الكلمات وفق دلالاتها المألوفة.
 - 3- التخلي عن الجزئية والميل إلى التعبير عن كلية التجربة الإنسانية.
 - 4- التخلي عن الرؤية الأفقية، والميل إلى الغوص فيما وراء الظواهر والأشياء.
 - 5- التخلي عن التفكك البنائي.²
- وهذه الشروط تقوم . كما هو واضح . على ثنائيات تظهر فيها الدعوة إلى التخلي أكثر من الالتزام، لأن حداثة الشعر لا تؤمن بالعيش إلا في عالم الحرية والتجاوز والانطلاق.

انتهى

¹ أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، 1983، ط3، ص: 09.
² المرجع نفسه: ص: 10-13.